بعد صدور روايتها الأولى «حدائق السراب»:

القاصة اللبنانية لنا عبد الرحمن: العوالم الباطنية والغامضة تجتذبني للكتابة عنها وكشف خباياها

القاهرة ـ «القدس العربي»:

تجتهد القاصة والروائية اللبنانية المقيمة في القاهرة لنا عبد الرحمن في ترسيخ تجربتها الإبداعية والصحافية من خلال ما نشرته من كتب إذ اصدرت في مجال القصة: «أوهام شرقية» ـ قصص 2004، «الموتى لا يكذبون» ـ قصص 2006 ومؤخرا صدرت روايتها الأولى «حدائق السراب»، وفي مجال المقاربات النقدية أصدرت كتابها «شاطئ آخر مقالات نقدية» ـ 2002، ولنا خريجة الجامعةاللبنانية (كلية الاداب) عام 1998، وقد حصلت منها على دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية ـ ودبلوم ترجمة باللغة الانكليزية من الجامعة الامريكية في القاهرة، وقد عملت في القسم الثقافي بجريدة «الكفاح العربي» ومراسلة لوكالة الصحافة العربية ببيروت بداية من عام 2001 ـ وهي تعمل اليوم مدير تحرير القسم الثقافي في «وكالة الصحافة العربية».

في روايتها الأولى «حدائق السراب» تغوص في عوالم داخلية لشخصيات لبنانية مازال بعضها أسير اهوال الحرب الأهلية، أو الظروف الحياتية المحيطة، أو ربما أسرى للطموحات المشظاة على أرض الواقع، وتجد لنا عبد الرحمن الأسلوب المناسب، والتقنيات السردية المركبة التي تحاكي حياة شخصيات روايتها وتنسجم معهم، وهي أيضا نشطة في مجال الكتابة الصحافية والترجمات، وتشكل هذه التجارب روافد مهمة لتشكيل شخصيتها الثقافية وكتابتها الإبداعية. التقيتها في القاهرة خلال الشهر الماضي حيث تعمل وتقيم وكان هذا الحوار حول حدائق السراب وهواجسها الإبداعية:

■ لنبدأ من روايتك الأولى الصادرة حديثا «حدائق السراب» فهل تعدينها تطورا لتجربتك القصصية أم هي حالة منفصلة ومقصودة أملتها عليك مشاغلك الإبداعية دون التخلي عن القصة القصيرة؟

■ «حدائق السراب» مكتوبة قبل المجموعتين،ربما لهذا السبب تبدو بعيدة عن نمط كتابتي للقصة القصيرة، انتهيت منها في عام 2001 وظللت أعدل عليها وابتعد واقترب منها طوال هذا الوقت، كنت مترددة كثيرا في نشرها، لكنها تنتمي لمرحلة معينة،لقد أحببت هذا النص، والأشخاص الذين عاشوا فيه لذا لم أرغب في أن أدفنهم الى الابد في أدراج مكتبي، أو أن أعيد إحياءهم في نص روائي جديد، رغبت في ان يبقوا مكانهم حيث ولدوا أول مرة.

■ لاحظت في «حدائق السراب» أن الشخصية الأساسية لبنانية وترغب بكتابة رواية فإلى أي مدى يتقاطع الذاتي والبيوغرافي مع الروائي والمتخيل فيها؟

■ تعني الشخصية الأساسية الساردة أي «ريما» التي تظهر في الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة فقط، وهي الساردة التي تقوم بفعل الكتابة منذ البداية، لكن دعني أوضح امرا، شخصية «ريما» رغم المساحة القليلة التي تشغلها في الحدث لكنها الخيط الأساسي الذي يمسك النص منذ لحظة البدء حتى النهاية، هي التي تنتقل بأساليب السرد، بين البطلين وبين الراوي الخارجي. خلال قراءة النص ربما يسبب هذا الأمر ارباكا للقارئ، لكن فيما بعد تتضح أهمية هذه الشخصية في تركيب الأحداث وتضفيرها والجمع فيما بينها.

أما في ما يتعلق بسؤالك عن الذاتي والبيوغرافي ربما أكون تقمصت شخصية ريما لأكتب هذا النص.

■ إذن يمكننا القول أنك تعمدت اختيار هذه الطريقة المركبة في السرد، بعبارة أخرى أرى ان هناك بعض الانتقالات السردية المفاجئة في الضمائر ربما كان لا يحتاجها النص؟

■ الرواية تسرد عبر راو خارجي كلي يتابع الاحداث من الخارج ويعبث بها، ويطلق سراح الابطال ليتكلموا عن أحاسيسهم، «حدائق السراب» هي لعبة مرايا متجاورة في السرد، كل مرآة تكشف جانبا من الرواية وجانبا من خفايا الشخصيات والأحداث، لذا خلال الكتابة كان من الضروري التنويع في أساليب السرد تبعا للأحداث وزاوية الرؤية وما تسعى الى كشفه الشخصيات والى إخفائه، فالحدث الرئيسي ظاهريا هو علاقة الحب بين مخرج مسرحي وممثلة شابة،لكن جوهر النص هو مدينة بيروت خلال الحرب وبعدها، عبر الاستدعاء لشخصيات وتفاصيل ساهمت في التأثير على نتيجة الحدث لا على حاضره، إن اختلاف الذاكرة بين البطلين ادى لنشوء تصدع ما في العلاقة، صدع غير مرئي لأي منهما، بل مكتشف من قبل الراوي الخارجي للنص الذي يعمل على تشكيل وسائل سرد مختلفة وفق كل حدث وذكرى تعكس ظلالها على سيرورة الاحداث الرئيسية، لعل اكثر ما أردت كشفه في هذا النص هو التحولات القيمية التي تطال البشر وتغير مسار حياتهم واختياراتهم. لذا وجدت خلال الكتابة أن متابعة السرد على نفس الوتيرة لن تؤدي الى إيصال الصورة في بعض التفاصيل، مثلا شخصية البطلة «سراب» لا تحكي عن الحرب إلا من منظور اجتماعي لانها لا تمتلك رؤية سياسية معينة ولم تكن شاهدة على الحرب، في الوقت الذي تشكل فيه الحرب ذاكرة البطل ويعيد ذكر تفاصيلها مع كل حدث. هذا الأمر ينطبق على بعض الشخصيات الجانبية التي احتاجت لراو خارجي كي يحكي حكاياتها وأحلامها وهزائمها أيضا.

■ بدأت الإبداعات السردية اللبنانية بالحديث عن الحرب ونتائجها طويلا فهل باعتقادك أن موضوعا طرق مطولا مثله يمكن أن يكون قابلا للاستفادة منه في الكتابات القصصية والروائية دون الوقوع في فخ التكرار أو الاجترار؟

■ الحرب أكثر سريالية من قدرتنا على الكتابة عنها، دائما هناك أشياء لم تكتب بعد، ازدادت قناعتي بهذا الأمر بعد حرب تموز (يوليو) الأخيرة هذا العام التي استمرت 33 يوما، هذه الحرب التي شهدت جزءا منها كنت أعايشها بوعي كامل،الحروب الماضية مختزنة في ذاكرة الطفولة، والحكايات التي سمعتها. لذا أظن من الصعب على أي كاتب لبناني أو عاش في لبنان أن لا يقترب في نصه من سيرة الحرب لأنها ومع الأسف دخلت في نسيج الذاكرة الجمعي للمجتمع.

■ تكتبين القصة القصيرة وهناك مقولة من البعض تقول ان الرواية تبدأ كقصة قصيرة ثم ينسج منها عملا روائيا، ما تعليقك؟

■ ربما تكون هذه المقولة صحيحة بالنسبة للبعض،لكن بالنسبة لي حين أكتب تبدو لي الخطوط أكثر وضوحا في ما أريد كتابته،خاصة بالنسبة للرواية لأن عوالمها اكثر اتساعا، وشخصياتها تحيا حيوات متعددة لا يمكن ان تستوعبها قصة قصيرة.

■ لو أردت أن تقدمي بشكل مكثف مجموعتيك القصصيتين (أوهام شرقية، الموتى لا يكذبون) للقارئ الذي لا يعرفهما وما الذي حققته فيهما فما الذي تقولين؟

■ في «أوهام شرقية» تحدثت عن أبطال لديهم أوهام داخلية تتحول الى قناعات تغير مسار حياتهم تبعا لوهم متخيل، هذه الاوهام تتمحور حول الرغبة في الهرب بعيدا رغبة في التخلص من الواقع، أيضا وهم المرأة في علاقتها بالرجل وتناقضات رؤيتها للاشياء التي تنتج عن غياب الوعي الحقيقي بالحياة. الانسان هو الانسان في كل مكان في كل مخاوفه وأهوائه تطلعاته ومساعيه لكن الشرق له أوهامه الخاصة التي تغزل مجتمعاتنا العربية. هذه الأوهام تولد حالة من الكوابيس والاحلام بعيدة عن المنطق تقود الانسان الى التفسخ وفقد العصارة الحقيقية لروحه.

في «الموتى لا يكذبون» هو عنوان القصة الاولى في المجموعة، وان كانت معظم قصص المجموعة تدور في اطار يتراوح بين السريالية والواقعية فان هذا النسيج السردي لم يكن مقصودا أثناء الكتابة بقدر ما كنت اعمل للكشف عن العوالم المتجاورة بين الخيال والواقع، لكل منا عوالمه الباطنية الخفية والغامضة وربما غير المتخيلة، هذه العوالم تجتذبني جدا للكتابة عنها، والكشف عن خباياها.

■ لاحظت أنك انشغلت بالنقد مبكرا حيث احتفى كتابك «شاطئ آخر ـ مقالات في القصة العربية» بعدد من التجارب السردية العربية فهل ما زلت متورطة في النقد وما الذي يدفعك لذلك أساسا؟

■ فعلا ما زلت استمتع جدا لدى الكتابة عن عمل أدبي يحرضني على اكتشافه، «شاطئ آخر» كان مجموعة من المقالات في الرواية والقصة العربية جمعتها في كتاب، ربما هي ليست نقدا بالمعنى الأكاديمي للكلمة، لكن حين كتبتها كنت قد بدأت في مرحلة الدراسات العليا التي تختص بالنقد الأدبي، أي أن الدراسة كانت عاملا أساسيا وراء البدء بكتابة هذه القراءات، الان ابتعدت قليلا عن هذه الكتابة،منذ ما يزيد عن عام ونصف وجدت نفسي مهتمة بالترجمة، فأخذت منى الكثير من الوقت الى جانب الكتابة الابداعية والعمل الصحافي، النقد لا يتطلب مزاحمة، ويحتاج لكثير من الصبر والتبصر.

■ بالمناسبة كيف تعامل النقد معك وإلى أي مدى نجح بالدخول إلى كتاباتك وقدمها للقارئ أي هل مر عليها مرور الكرام أم اللئام أم تجاهلها؟

■ هل ابالغ إن قلت اننا جيل من دون نقاد، لا أظن أن هناك دراسات نقدية على كتابات الجيل الذي انتمي له ، هناك عرض صحافي للقصص والروايات، هناك ندوات تناقش بعض الأعمال، لكن ليس هناك نقد بالمعنى الحقيقي،ربما لأن ملامح نصوص هذا الجيل لم تتشكل بعد، وربما لأن بعضها يتضمن أساليب كتابة حديثة تحتاج لمعايير نقدية تواكب حداثتها أيضا.

■ ما الذي يمكن أن يفعله الادب وسط هذه القيم الاستهلاكية، وهيمنة ثقافة الصورة، وأي مستقبل ينتظره؟

■ فعلا منذ دخولنا في الميديا المرئية صارت الصورة تطغى على الكلمة، هذا الامر بات ملحوظا حتى في الصحف والمجلات، وليس فقط عبر الشاشة. تراجع دور القراءة كثيرا عن السابق، امام ظهور وسائل للمعرفة والتسلية أسهل واكثر انتشارا، في المقابل لا يتم الترويج للابداع الفكري كما يتم الترويج للبرامج الفنية، ولو نظرنا الى البرامج التي تعنى بالابداع عبر القنوات الفضائية لوجدنا نسبة ضئيلة جدا، ويساهم أيضا العامل الاقتصادي وقلة الوعي في عدم اقبال الناس على القراءة، وبالتالي الكاتب العربي يكتب لجمهور لا يقرأ، وتظل دائرة القراءة محصورة بين الكتاب أنفسهم، والكاتب يكتب لمتعته الذاتية وليس لأمله في التغير، لكن رغم كل هذا سيظل للكتاب هالته الخاصة ورونقه الذي لا يزول.

■ أخيرا كيف تنظرين الى ترابط العلاقة بين الادب والفنون الاخرى،وأثر ذلك في تكوينك؟

■ هل ينفصل الادب مثلا عن السينما؟ او عن الموسيقى؟ يوجد تضافر حيوي بين الادب وسائر الفنون، فالسينما تأخذ من الادب النص، والادب يلجأ للتقنيات السينمائية في الصورة والقطع والفلاش باك، بعض الاعمال الادبية تستدعي لحظة قراءتها مجموعة من الصور الحية وتركبها في لحظات قليلة، هذا ايضا لا يبتعد عن علاقة الفن التشكيلي في ألوانه وغموضه عبر تداخل الواقع بالخيال عن الكتابات السريالية التي تعيد تفكيك العالم وكتابته وفق رؤيتها الخاصة. لذا تظل علاقة الادب مع الفنون الاخرى أشبه بالبيت المشترك ذي الأبواب المتعددة كل منها يقود للآخر.

لنا عبد الرحمن (القدس العربي)

التقاها: يحيى القيسي

ندوة الرقة بين التنظير والتسييس:

العروبة والاسلام والهوية الضائعة

الرقة ـ (سورية) ـ «القدس العربي»

ـ من أنور بدر:

كما عودتنا الرقة ومديرية ثقافتها، لم تتأخر كثيراً في التقاط هواجس وعلامات الاستفهام التي أفرزتها الحرب العدوانية الاسرائيلية الأخيرة على لبنان، فانتقلت من ندوة «ثقافة المقاومة» الى ندوة جديدة بعنوان «العروبة والاسلام»، ايماناً بأن أية مقاومة لا تستند الى الكتلة التاريخية سوف يتبخر جهدها وتُهدر انتصاراتها بشكل سريع، والكتلة التاريخية لا تبنى أو تتشكل الا من خلال هوية واضحة المعالم والانتماء.

فهل تشكل العروبة والاسلام مكونات هذه الهوية كما يؤكد الأستاذ حمود الموسى مدير ثقافة الرقة في تقديمه لهذه الندوة؟ مضيفاً أن لا تعارض بينهما، بل كان التعارض بين التجليات الهيكلية والتنظيمية للحركات السياسية التي صدرت عنهما– وهو محق في ذلك بلا ريب– تاركاً لنخبة من الأكاديميين والباحثين العرب مهمة استيلاد الأسئلة قبل البحث عن الأجوبة.

لكننا نلاحظ قصورا تحت هذا السقف، فالباحث عبد الله حمودة من الأردن، خرج عن محور محاضرته «العروبة والاسلام عند مفكري النهضة» ليثير مجموعة من الملاحظات حول الحركة القومية العربية، مع تمسكه بأيديولوجيا شعاراتية في رفضه أي انتقاد لهذه القومية، سواء جاء من الاتحاد السوفييتي (سابقاً) أو الأستاذ غسان سلامة وصولاً الى الرئيس القذافي.

وبعد استفاضة مع الأحداث التي تتعرض لها الأمة العربية في فلسطين والعراق ولبنان، يعود للتأكيد الجازم «وحتماً ستنهض الأمة وتنتصر، وذلك يتوقف على الاستفادة من ثغرات الحركة القومية في القرن الماضي وصولاً لنهوض حركة قومية عربية شاملة، خاصة وأن كل أسباب الانتصار الموضوعية متوفرة من حيث الجغرافيا والتراث والتاريخ والمصالح المشتركة، ولكن المطلوب العامل الذاتي».

كذلك فعل الدكتور أشرف بيومي من مصر فهو لم يتكلم عن موضوعه «العروبة والاسلام بين التحرر والتبعية» بقدر ما توقف مع الحدث اللبناني بدلالاته السياسية كانتصار للمقاومة، مؤكداً على ضرورة القطيعة مع الخارج متهماً كل منظمات المجتمع المدني التي تقبل التمويل الأجنبي بكونها أدوات خطيرة وفعالة لافساد واحتواء المثقفين وتبني المشاريع الامبريالية في تناقضها مع الأولوية الوطنية، مؤكدا رفضه القاطع لأي استقواء بقوى الهيمنة الأجنبية.

وهو لم يخف خصوصية هذه المسألة في مصر تحديداً، لذلك أخذنا في حديث مطول حول أوراق ومعلومات من الانترنيت تبدأ بكامب ديفيد ولا تنتهي عند ما يجري في العراق.

الدكتور أحمد بهاء الدين شعبان كان منسجماً مع موضوعه «العروبة والاسلام في مواجهة مشروع الشرق الأوسط الجديد» مستفيداً من دروس حرب مقاومة العدوان الاسرائيلي الأمريكي على لبنان، وهي برأيه:

1 ـ ارادة المقاومة أقوى من التكنولوجيا

2 ـ اعادة اكتشاف شعار حرب التحرير الشعبية

3 ـ هناك حدود للقوة مهما كانت قدرتها على البطش

مضيفاً التأكيد على العلاقة العضوية التي لا تنفصل بين أمريكا واسرائيل، وأن النظم العربية التابعة والعميلة قد انضمت الى معسكر الأعداء في هذه الحرب الأخيرة بشكل سافر، مما أدى الى تمايز رأسي في الوطن العربي بين معسكر المقاومة مقابل معسكر أعداء الشعب، خاصة بعدما اتسعت الفجوة بين معظم النظم العربية وبين شعوبها، حتى بات من المستحيل تجسيرها. والملاحظة الأخيرة والأهم بالنسبة له ولغيره من المحاضرين كانت حول زيف الديمقراطية التي تنادي بها الولايات المتحدة الأمريكية.

الدكتور محمد جواد فارس من العراق توقف مع النموذج العراقي في التقاطه لتحديات المرحلة، الحالة التي تواجهها العروبة والاسلام معاً بصفتهما استهدافاً للمشروع الامبريالي الأمريكي الصهيوني، فالعروبة هي القومية المطلقة للأمة العربية، والاسلام هو الدلالة على التعاليم الاسلامية التي تناهض الاستبداد والقهر والظلم الاجتماعي والفردي.

وبعد استطراد مع مجريات العدوان الأمريكي على العراق، يصل الى:

1 ـ الاشادة بالمقاومة العراقية الوطنية الباسلة.

2 ـ العراق أيام صدام حسين لم يكن دولة ارهابية.

3 ـ زيف الادعاء بوجود أسلحة الدمار الشامل في العراق.

4 ـ الطائفية التي تظهر في العراق هي صناعة أمريكية منذ تشكيلة مجلس الحكم بقيادة برايمر.

5 ـ قامت الولايات المتحدة بتدريب الميليشيات الكردية والطائفية معاً، ثم جرى تنسيب الشيعية منها الى وزارة الداخلية باشراف الجنرال جيمس ستيل، والسنية منها الى وزارة الدفاع باشراف ستيفن كاستل، حيث تقوم وزارة الدفاع السنية بقتل الشيعة ، في حين تقوم وزارة الداخلية الشيعية بقتل السنة.

6 ـ ان المخاطر التي تواجه العروبة والاسلام تتجلى بأنصع صورها اليوم في الأيديولوجيا اليمينية التي تبشر بها وسائل الاعلام ومراكز الدراسات الأمريكية حول «فاشية الاسلام» كمقابل لتعبير «العروبة الفاشية» الذي أطلق في الخمسينيات.

***

الدكتور جورج جبور من سورية تحدث عن العروبة والاسلام في الدساتير العربية، فقال آن دستور سورية الذي صدر عام 1950، هو أول دستور عربي يرد فيه مفهوم الأمة العربية، وفي عام 1952 تم اقتباس هذا المفهوم في تعديل طرأ على الدستور الأردني، وبدأ يتكرس لاحقاً في معظم الدساتير العربية، وكان السادات قد تراجع عنه بعد زيارته للقدس عام 1977، ثم تمت العودة اليه في مصر، لكن الدستور العراقي الجديد يؤكد على عروبة الشعب العراقي، مما اعتبره انتقاصاً في شمولية العروبة.

أما أول اثر اسلامي دستوري فيعود الى عام 1876 أيام السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية، وهي اشارة أخذت تتكرس في الدول العربية باعتبار الاسلام دين الدولة، وتم التراجع في بعض الدول الى اعتباره دين رئيس الدولة، لكن الدستور الدائم في سورية الصادر عام 1973 لم ينص في أي من مواده على دين رئيس الدولة.

الباحثة والنائب السابق في البرلمان الأردني توجان الفيصل تحدثت عن مزايا الانتماء للعروبة والاسلام ومخاطر الأدلجة في كليهما، فأكدت أن القومية العربية فكرة جامعة لمكونات المجتمعات العربية باعتبارها حصيلة لغة وجغرافيا وعادات وتقاليد، كذلك الحضارة الاسلامية تمازجت مع باقي الحضارات والأديان في المنطقة، ولا حد فاصل بين الحضارات أو الأديان، لتخلص الى النتيجة الرشديّة في فصل الدين عن الدولة، واستبعاد كل أشكال الأيديولوجيا من مكونات الأمة.

فيما ذهب الدكتور الطيب تيزيني من سورية الى تسجيل ملاحظات أولية حول العلاقة بين العروبة والاسلام، باعتبارها علاقة شرطية متبادلة، لأن الأمة العربية أسبق من الاسلام تاريخيا، مما يفضي الى نتيجة ذات راهنية سياسية وسوسيوثقافية وربما كذلك حضارية، وهي أن العرب المكونين لهذه الأمة هم قاعدة التطور التاريخي الذي لحق بهم بكل ما تكون فيه من تجليات ثقافية ودينية ومن ضمنها الاسلام نفسه والنصرانية والمسيحية الشرقية...وانطلاقا من قول عمر بن الخطاب «ان العرب مادة الاسلام» يمكن القول أن الاسلام انطلق من العرب بكل مكوناتهم، ومثل الوريث الشرعي لكل ما أنتجوه من أفكار وتصورات وعقائد، بعد أن أعاد بناءها بمقتضى عصره.

أما المفكر الاسلامي أبو يعرب المرزوقي من تونس فتحدث عن دين العروبة للاسلام، مستفيضاً من معاني الماضي في التأسيس للمستقبل الاسلامي الذي يقود العرب فيه كل الحركات الاسلامية وأكثرها متهم بالارهاب من أفغانستان الى قطاني ومن الصومال الى العراق.

لكنه أفرد فصلاً للحديث عن علة انحراف المسلمين عن الثورة الاسلامية، جامعا اياها بالأدواء الخمسة:

ـ اثنين موروثين عن الماضي الذاتي الذي نفى حرية المعتقد القرآنية: وتجليا في صراع الملل وصراع النحل.

ـ واثنين موروثين عن الماضي الغربي الذي حرّف نظرية الاخوة البشرية القرآنية في صراع العرقيات وصراع الطبقات.

ـ ثم الداء الأصل: في تحريف فلسفة الدين وفلسفة التاريخ القرآنيتين.

داعياً أن يتخلص المسلمون من هذه الأمراض، لكي يعودوا الى لعب دورهم الكوني.

أخيراً تحدث الدكتور فاضل الربيعي من العراق حول «نقاد العروبة وجدلية العلاقة بين العروبة والاسلام» موضحاً أنّ النقد الأيديولوجي تحوّل الى صراع بين القوميين والاسلاميين فيما بينهم وبين ما عداهم من تيارات أيديولوجية في نهاية الحرب العالمية الثانية.

وميّز بين القومية التي ظهرت في الغرب مع تطوّر وسائل الانتاج وبين الفكر القومي لدينا باعتبار العروبة رابطة شعورية لأنّ الأمة وجود محقق.

واذا كان نقد العروبة اجمالاً وطوال العقود الخمسة الأخيرة يتسم بكونه تعبيراً مكثفاً عن نقد شامل للنظام السياسي الذي تبنى أيديولوجية القومية العربية أو قام باسمها، خاصة بعد هزيمة عام 1967 وما عنته من اخفاق وفشل لتجارب الحكم الوطني في التنمية والديمقراطية واسترداد فلسطين، الا أنّ اتساع رقعة نقاد القومية خارج اطار الاسلاميين والشيوعيين مع دخول ليبراليين جدد على خط نقاد العروبة أفسح مجالاً لأفكار وصور نمطية قديمة عن القومية العربية باعتبارها نتاج الفكر الفاشي الأوروبي، لكنهم بذلك دفعوا الى تعظيم النموذج الديمقراطي الاسرائيلي مقابل النموذج القومي العربي.

***

هذه الملاحظة الأخيرة تفتح على مسألة مهمة شكلت حضوراً عند المشاركين في الندوة سواءً كانوا من الأطياف الاسلامية أو القومية. وهي مسألة العداء لليبرالية وللديمقراطية باعتبارها سلعة امريكية عند البعض وغربية عند آخرين، واسرائيلية عند قسمٍ منهم. وأنا لا أعلم لماذا لا يحق للشعوب العربية أن تنادي بالديمقراطية فيما اذا رفعت امريكا أو حتى اسرائيل هذا الشعار؟ ولو فرضنا أنّ امريكا رفعت شعار حرية المواطن أو رفاهيته مثلاً، فهل يكون لزاماً علينا أن نطالب بقمع المواطن أو تعميم البؤس والفقر عليه نكاية بما رفعوا هم من شعارات؟!!

المسألة الثانية أنّ نقاش العروبة والاسلام لا يتم الا في مواجهة الآخر، مع أنّ أي مواطن في مشرق الوطن العربي ومغربه يعرّف بنفسه أنه عربي ومسلم ـ فيما لو كان كذلك ـ دون أن يضع نفسه في مواجهة الآخر، فالهوية مكوّن ذاتي أكثر منها رد فعل على مؤثر خارجي.

المسألة الثالثة والاهم في هذا السياق تتجلى بالنظرة الى الأقليات والإثنيات القومية والمذهبية في الوطن العربي، والتي يُصر مفكرونا القوميون أنهم عرب، وهم يرفضون ذلك، بينما يستطيع الاسلاميون استيعاب غالبيتهم باستثناء من اعتنق المسيحية في المنطقة وهم ليسوا أقلية بدورهم.

النائب في البرلمان الأردني توجان الفيصل اعتبرت في لفتة جميلة أنها رغم أصولها الشركسية تنتمي للثقافة والحضارة العربية الاسلامية كمكون اجتماعي وثقافي، متجاهلة أنّ هذا الاحساس لا يمكن أن ينمو في حال غياب حقوق المواطنة، وبالتالي نجد أنّ الأقليات المضطهدة من قبل أنظمة تعسفية تهضم حقوق شعوبها عرباً وغير عرب هم أكثر بحثاً عن هوية خاصة بهم، حتى لو كانت هوية معادية لتلك الأنظمة بمكوناتها الأيديولوجية والقومية.

فالدكتور محمد جواد فارس من العراق يعتبر أنّ العروبة هي القومية المطلقة للأمة العربية، مستنكرا ما جاء في الدستور بأنّ الشعب العربي في العراق هو جزء من الأمة العربية، لأنّ العراق كله جزء من الأمة العربية، بعربه وكرده وتركمانه وآشورييه.... الخ.

وهذا ينسجم مع تعريف الأستاذ عبد الله حمودة من الأردن للعربي بأنه كل من يعيش على الأرض العربية ويكتسب جنسية أي قطر فيها، بغض النظر عن كونه كردياً أو أرمنياً أو لأي طائفة ينتمي، كذلك يطالب الأستاذ جورج جبور الأقليات الإثنية في سورية التي لا تحبذ تعبير الأمة العربية، يطالبها بالانفتاح على مفهوم الأمة العربية بعيداً عن النظرة الضيقة والنزعة العنصرية، لكنه يتجاهل التأكيد على مفهوم وحقوق المواطنة لهؤلاء حتى يكونوا شركاء في بناء الوطن والدفاع عنه.

وحده الأستاذ حمود الموسى أشار في تقديمه للندوة الى دور العامل الذاتي، والصراعات الداخلية في ضياع الهوية القومية، فيقول «تحاربت هذه القوى وحفرت خنادق من دم بين تخوم بعضها البعض في صراعاتها... بينما بقيت التحديات ـ التي كانت في الأصل مبرر قيامها ـ دون حلول، فلا الأرض حررت ولا أزمة الحريات حلت، بل امتلأت السجون والمعتقلات وهاجرت النخب الى الخارج، ولا العدالة الاجتماعية سادت بل غدونا مضرب المثل في أقصى درجات الغنى وأشد حالات الفقر، ولا الوحدة تحققت بل تكاثرنا دولاً وطوائف ولم نستطع حتى الآن أن نصوغ شكل هويتنا...اضافة الى أننا ما زلنا بكامل عجزنا في مواجهة التخلف وتحديات التنمية».

من هذه المقدمة الهامة كان يمكن الانطلاق باتجاه البحث عن أسئلة أكثر الحاحا فيما يتعلق بمستقبل وجودنا الاجتماعي والسياسي، وبأقل قدر من الانشاء والأيديولوجيا التي لا تسمن من ضعف ولا تغني عن هوية.

قص

الحارس الذي في القلعة

علوان حسين*

■ الحارس الذي فوق يمكن أن يكون أنا، والسجين المتقلب من الخوف أو الكوابيس هو ذلك الذي كان يوما الحارس. البندقية على كتفي ثقيلة تؤلم حافة الكتف. لا أدري ما نفع البندقية لي أو للناس المتكومين كبضاعة بائرة في مخازن مغلقة؟ هذا السجين مثلا يتحرك في فراشه كالمصاب بالجرب.

هيئته بائسة وشكله رث، لا شك أن أحلامه توخزه كالمسامير. لم أر انساناً نائماً بهذه الهيئة من قبل. تروق لي نوبة الحراسة في الليل حيث الطقس رائع والنجوم كأنها صبايا رائعات الجمال يومئن لي من بعيد. آه ما أحلى أن أضاجع نجمة على العشب الأخضر الطري. الهواء نظيف مشبعٌ بالندى وكأن أجنحة تنبت لي وتدعوني للطيران. لولا هذه الروائح الخانقة التي تبعثها هذه الأجساد المتعفنة كجثث في حالة تفسخ. هذه المخلوقات المتروكة لقدر مضحك في غرائبه أشك أنها كانت سعيدة في حياتها. يبدو أنها ضجرت من الحرية ولاذت بهذا المكان هرباً ربما من ممارسة الرذيلة مع النساء أو طمعاً في الجنة. يحيرني أكثر هذا السجين الذي لا يستطيع النوم وهو في الوقت نفسه مجبرٌ عليه. الأنشوطة حول رقبته، يحاول عبثاً فك عقدتها. المشنقة تنتصب أمام عينيه كلما حاول النوم قليلا. لستُ مشفقاً عليه فهذا قدره طبعاً، لكني أتأمل حالته فحسب. بالنسبة لي لا أستطيع النوم مع مشنقة. شهر واحد أغيب فيه عن زوجتي ودفء فراشي، بعيداً عن حضن الأنثى ومداعبة حرير جسدها الشهي واستنشاق أريج عطورها ولمسة حنانها العذبة، آه أكاد أجن من حرمان شهر طويل كدهر. ربما يفكر هذا السجين في زوجته في هذه اللحظة بالذات، رغباته تزداد اتقاداً بينما جسده يهترئ ويذبل في اسطبل للخيول النافقة. هؤلاء ينتمون للجنس البشري، وأنا بالطبع أنتمي لنفس الجنس، كذلك الجهة التي أمرت بحبسهم في هذا المكان القذر. ما أبشع هذا الجنس البشري. الحيوانات في البرية لم تتعامل بهذه الوحشية، الحيوانات أرقى من البشر. صحيح أني أتعفف من ايقاع الأذى بهم، ضربهم مثلا أو تعذيبهم بالطرق المألوفة في هذا السجن كالفلقة والجلد على الرأس وكسر الأضلاع وحرمانهم من النوم وغيرها، ولكني متواطىء ضدهم. بديهي أن أية محاولة ولو بسيطة تفهم على أساس تعاطفي معهم في ابداء ولو عاطفة عابرة وعفوية في التعبير عن اشمئزازي من رؤية مشاهد التعذيب والعذاب وسماع عويل واستغاثات السجناء يعد مؤامرة ضد السلطة وخرقاً للقوانين تهدر دم صاحبها أو يكون مصيره النوم كما حالة هذا السجين السابح في نهر من الظلمات، وكأنه الآن بين فكي تمساح أو أسد مفترس. لكل منا غريزته، السجان يعبر عنها بالجلد والسجين بالصراخ. السجان يروي حاجة عميقة في روح أصابها التبلد والعطب، غريزة النار التي لا ترتوي حتى تحترق هي نفسها وتصير رمادا. السجين قد ترويه دمعة ممزقة تحفر على وجه صاحبها ثلماً وربما في روحه أيضاً. يبدو أن وجود السجين ضرورة للسجان كي تكتمل صورته على الأقل أمام نفسه. ترى أين هو اله هذه المخلوقات؟ في أي كوكب يعيش.. ألا يسمع صراخهم وتضرعاتهم وصلواتهم؟ لماذا هو في حالة الامبالاة .. أليس هو المسؤول عن وجودهم .. أم ليس ثمة من اله وتلك هي الطامة الكبرى؟ من يشفع لهؤلاء اذن؟ لماذا لايستقيل السجناء من وظيفة دورهم كضحايا في الحياة تاركين السجن للسجانين يحرسونه من الأشباح؟

رئيس الدولة يرفض الاستقالة من وظيفته كرئيس خالد حتى موته وربما سوف يظل يحكم وهو ميت، هؤلاء الرؤساء يرفضون ترك الوظيفة حتى وهم موتى. الضباط يجدون في الوظيفة هالة وملكا لا يستحقونه في حياة طبيعية عادية كوظيفة مدنية تؤمن لهم الخبز والأحلام البسيطة التي يرنو لها كل انسان على وجه البسيطة. لكننا كأفراد شرطة نشقى ونتعذب ونسهر تاركين أحبتنا وحياتنا وراءنا ليهنأ هؤلاء الأوباش. ماذا نخسر لو فقدنا وظيفة شرطي حقيرة الوصف، لماذا التشبث بمهنة وضيعة كهذي؟ لأحد يترك موقعه ولو كان تلك المهنة التي قال أحد الحكماء فيها (تسقط المرأة فتصبح عاهرة، ويسقط الرجل فيكون شرطياً). تخيل وأنا أمشي في الشارع مزهواً ببدلتي الكاكي وسطوتي كرجل الدولة المرعب، والآخرون يهمسون في سرهم أنظر قد أتت العاهرة تجر وراءها فضيلتها كذيل مقطوع .. يا لها من مسخ هذه الشمطاء المتعجرفة. أكاد أسمع سخريتهم التي يخفونها خلف ابتسامة مراوغة مليئة بالاحتقار. وبخبث وقصدية أسير أمامهم وأنا أخبط الأرض محدثاً جلبة وغباراً، ليموتوا في غيظهم. أنا السجان وقابض الأرواح .. ليأتوا الى السجن ويروا بأم أعينهم رهبتي وقسوة قلبي، وليحكموا بعدها بما تشاؤه عقولهم الصغيرة.

* كاتب عراقي